مدخل
إلى الأيديولوجيات السياسية

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة العلوم الاجتماعية للباحثين

المشرف على السلسلة: فيصل يونس

- العدد: 1830
- مدخل إلى الأيديولوجيات السياسية
- أندرو هيود
- محمد صفار
- الطبعة الأولى 2012

هذه ترجمة كتاب:

Political Ideologies 4th edition: An Introduction
By: Andrew Heywood
Copyright © Andrew Heywood 1992
First published in English by Palgrave Macmillan, a division of Macmillan Publishers Limited under the title Political Ideologies 4th Ed, by Andrew Heywood. This edition has been translated and published under license from Palgrave Macmillan. The author has asserted his right to be identified as the author of this work.

هذا العمل يصدر بالتعاون مع مؤسسة فورد

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

مـدخـل
إلى الأيديولوجيات السياسية

تـأليف: أندرو هيـود
ترجمة: محمد صفار

2012

هيود، أندرو.
مدخل إلى الايديولوچيات السياسية/ تأليف:
أندرو هيود، ترجمة: محمد صفاء. ـ القاهرة :
الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠١٢.
٤٦٤ ص؛ ٢٤سم.
تدمك ٧ ١٤٨ ٢٠٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ المذاهب السياسية.
أ ـ صفاء، محمد. (مترجم)
ب ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب٣٩٠١/ ٢٠١٢

I. S. B. N 978 - 977 - 207 -148 - 7

ديوى ٥, ٣٢٠

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

الصفحة

مقدمة الطبعة الرابعة 7

الفصل الأول: مقدمة فى فهم الأيديولوجيا 9

الفصل الثانى: الليبرالية 39

الفصل الثالث: المحافظة 85

الفصل الرابع: الاشتراكية 125

الفصل الخامس: القومية 177

الفصل السادس: الفوضوية 215

الفصل السابع: الفاشستية 247

الفصل الثامن: النسوية 279

الفصل التاسع: الإيكولوجية 311

الفصل العاشر: الأصولية الدينية 343

الفصل الحادى عشر: التعددية الثقافية 377

الفصل الثانى عشر: خلاصة: عصر ما بعد الأيديولوجيا 405

ثبت المفكرين 415

ثبت المذاهب 433

المراجع 445

مقدمة الطبعة الرابعة

جرت كتابة الطبعة الأولى من الأيديولوجيات السياسية على خلفية ثورات أوروبا الشرقية (١٩٨٩ ـ ١٩٩١). وبالنظر إلى الماضى، كان "انهيار الشيوعية"، مظهرًا ومحفزًا لسلسلة من التطورات السياسية ـ التاريخية المترابطة فى العديد من الحالات وذات الأهمية العميقة. ومن أهم تلك التطورات نمو الاقتصاد الرأسمالى العالمى وصعود القومية الإثنية والأصولية الدينية وظهور مجتمعات "المعلومات" أو ما بعد الحداثة وقيام نظام عالمى أحادى القطبية تسيطر عليه الولايات المتحدة وميلاد الإرهاب العالمى. ويبدو أن التاريخ قد أخذ يسرع الخطو بطرق مبهرة، إذ أصبحت الآن يقينيات ورواسخ القيم محل شك، أو جرى فى بعض الحالات طرحها جانبًا بشكل كلى، وتحمل تلك العمليات تداعيات كبرى للأيديولوجيات السياسية. فقد أُعلنت وفاة الاشتراكية بوجه عام: ويدعى البعض النصر النهائى لليبرالية الغربية، بينما يشير آخرون أنها فى أزمة، وتتكيّف القومية مع تحديات النزعات فوق القومية والتعددية الثقافية، وما إلى ذلك.

ويرى بعض المعلقين أن تلك التبدلات أعراض لعملية أعمق، ألا وهى زوال الأيديولوجيا ذاتها (ومعها زوال الحزب السياسى صاحب البرنامج). ولم يعد للأيديدلوجيا السياسية ببساطة مكان فى عالم ما بعد حداثى متعولم يتسم بالتشرذم الاجتماعى ويسوده الاستهلاك الشخصى. وعلى أية حال، إن ما نشهده ليس نهاية الأيديدلوجيا (وهو أمر يعد إعلانه دائمًا فى غاية الخطورة) بقدر ما أن التقاليد الأيديولوجية الرئيسية تجاوزها التاريخ فى الواقع. ولقد ناضل التفكير الأيديولوجى الجديد ليجعل للعالم كما هو معنى، ولكنه بصراحة ليس لديه أدنى فكرة عن الوجهة التى يسير العالم إليها. وبالرغم من ذلك، سيكون

مصير الأيديولوجيا، باعتبارها المصدر الرئيسى للمعنى والمثالية فى السياسية، هو البقاء، فى أى شكل أو قالب تتخذه. وفى النهاية، سيكون مصير السياسية المنزوعة الأيديولوجيا أو ذات التوجه الاستهلاكى هو الهلاك، لأنها لا تمنح الناس سببًا للإيمان بشىء أكبر من المصلحة الذاتية المادية ولأن الروايات الشخصية للناس لا يكون لها معنى إلا عند وضعها داخل الروايات التاريخية الأكثر اتساعًا.

وتحاول الطبعة الرابعة أن تأخذ فى الاعتبار كيفية تكيُّف التقاليد الأيديولوجية الرئيسية، بل والأيديولوجيا ذاتها، مع تلك التحديات. وهناك فصل جديد عن التعددية الثقافية (الفصل الحادى عشر)، فبالرغم من أن التعددية الثقافية قد لا تشكل أيديولوجيا بنفس المعنى مثل الليبرالية والاشتراكية (وهو السؤال الذى تتم مناقشته فى هذا الكتاب ذاته، دون حاجة لتكرار ذلك) صارت الآن تلك القضايا التى نشأت، عما تتسم به العديد من المجتمعات الحديثة من طابع يتزايد فيه التعدد الإثنى والدينى والثقافى، من الأهمية بمكان، بحيث تستحق أن تعالج على نحو مستقل، وليس كنقاشات فرعية داخل الليبرالية والأيديولوجيا المحافظة. ولعل قضية أخرى تلقت اهتمامًا أكبر هى طبيعة ودلالة الانتقال مما يسمى بالأيديولوجيا "الكلاسيكية" إلى ما جرى وصفه بالأيديولوجيات "الجديدة". لماذا ظهرت هذه الأيديولوجيات؟ وبأى معنى تعد جديدة؟ وكيف تختلف عن الأيديولوجيا القديمة؟ تمت مراجعة وتحديث هذا النص أخذًا فى الاعتبار لكل من التغيرات الحادثة بداخل الأيديولوجيات ذاتها وكذلك تغير دلالتها. ونتيجة لذلك، جرى على سبيل المثال اختصار عرض الشيوعية التقليدية، بينما تم التوسع فى مناقشة الأيديولوجيا الإسلامية وجوانب السياسية الخارجية لأيديولوجيا المحافظين الجدد.

وفى الختام أود أن أشكر كل من علق أو أرسل استجابة للطبعات الأولى من هذا الكتاب، وآمل أن تقطع هذه الطبعة بعض الخطوات على طريق تناول القضايا والمقترحات التى أثارتها الطبعات الأولى.

أندرو هيود

الفصل الأول

مقدمة فى فهم الأيديولوجيا

نظرة تمهيدية

إن جميع الناس مفكرون سياسيون. وسواء علموا بذلك أم لم يعلموا، فإن الناس يستخدمون المفاهيم والأفكار السياسية حينما يعبرون عن آرائهم أو يصرحون بما فى أذهانهم. وتتبعثر فى لغة الحياة اليومية مصطلحات مثل "الحرية" و"الإنصاف" و"المساواة" و"العدالة" و" الحقوق". وفى نفس الوقت، يوظف الناس بشكل منتظم كلمات من مثل "محافظ" و"ليبرالى" و"اشتراكى" و"شيوعى" و"فاشستى" إما لوصف آرائهم الخاصة أو آراء غيرهم. وعلى أية حال، مع أن تلك المصطلحات مألوفة وحتى شائعة، يندر أن تستخدم بأى دقة أو بفهم واضح لمعانيها. ما هى"المساواة" على سبيل المثال؟ وماذا يعنى أن تقول: كل الناس سواسية؟ هل يولد الناس متساوين وهل ينبغى معاملتهم من قبل المجتمع كما لو كانوا متساوين؟ أينبغى أن تكون للناس حقوق متساوية ونفوذ سياسى متساو وأجور متساوية؟ وبالمثل عادة ما يُساء استخدام كلمات مثل " اشتراكى" أو "فاشستى"؟ ما القيم أو المعتقدات التى يعتنقها الفاشستيون، ولماذا يعتنقونها؟ كيف تختلف آراء الاشتراكيين عن تلك الخاصة بالليبراليين أو المحافظين أو الفوضويين؟ إن هذا الكتاب يتقصى الأفكار والمعتقدات الأساسية للأيديولوجيات السياسية الكبرى. ويتناول هذا الفصل التمهيدى دور الأفكار فى السياسة، وحياة ومراحل (التى هى متداخلة فى بعض الأحيان) مفهوم الأيديولوجيا، وطبيعة وبيئة الفكر الأيديولوجى، واللاندسكيب (المنظر) المتغير للأيديولوجيات السياسية.

دور الأفكار

ليس كل المفكرين السياسيين يسلمون بأن الأفكار والأيديولوجيات ذات أهمية بالغة، لأن السياسة جرى التفكير فيها فى بعض الأوقات على أنها ليست أكثر بكثير من مجرد صراع على السلطة. ولو كان ذلك صحيحًا، ستكون الأفكار السياسية مجرد دعاية أى قالب للكلمات أو مجموعة من الشعارات المصممة للفوز بالأصوات الانتخابية أو لكسب الدعم الشعبى. ولذلك ستغدو الأفكار والأيديولوجيا ببساطة مجرد "تجميل لواجهة المتجر" يستخدم لإخفاء الحقائق الأعمق للحياة السياسية. وهذا الموقف يدعمه المذهب السلوكى، وهو تلك المدرسة فى علم النفس التى تعتقد أن البشر ليسوا أكثر بكثير من آلات بيولوجية معدة للقيام بالفعل (أو بالأحرى رد الفعل) استجابة لمنبه خارجى. أما الفاعل المفكر، سويًا مع أفكاره وقيمه ومشاعره ونواياه، فليس له أهمية بمنتهى البساطة.

وهناك نظرة مماثلة لذلك أيضا هى "المادية الجدلية" وهى الشكل الخام للماركسية التى سيطرت على البحث الفكرى فى الاتحاد السوفيتى وغيره من الدول الشيوعية التقليدية الأخرى. وتؤكد تلك النظرة على أن الأفكار السياسية يمكن فهمها فقط فى ضوء المصالح الطبقية أو الاقتصادية لأولئك الذين يعبرون عنها. فللأفكار أساس مادى، وليس لها معنى أو أهمية فى حد ذاتها. وقد طُرحت أيضا وجهة النظر المقابلة، حيث يرى الاقتصادى البريطانى جون مايناردكينز (١٨٨٣ ـ ١٩٤٦) على سبيل المثال، أن العالم لا تحكمه سوى بأكثر من الأفكار الخاصة بالمنظِّرين الاقتصاديين والفلاسفة السياسيين. وصاغ هذا الرأى فى الصفحات الختامية لكتابه النظرية العامة:

> **"إن الرجال العمليين، الذين يعتقدون فى أنفسهم أنهم معافون من أية مؤثرات فكرية، يعدون فى العادة عبيداً لأحد الاقتصاديين الميتين. وأولئك المجانين فى مقاعد السلطة، الذين يسمعون أصواتاً فى الهواء، إنما يستخلصون حيلهم من كاتب أكاديمى تافه عاش منذ بضع سنوات ماضية"** (**Keynes [1936] 1963, p. 383**).

وبعيداً عن أن يصرف هذا الموقف الأفكار لكونها استجابات مقيدة للظروف العملية، فإنه يلقى الضوء على الدرجة التى تقدم بها المعتقدات والنظريات ينبوعًا للفعل البشرى. إن العالم يحكمه فى النهاية "كُتاب أكاديميون قليلو الشأن". ويلمِّح هذا الرأى إلى أن الرأسمالية الحديثة فى جوانب مهمة منها، على سبيل المثال، تطورت عن علم الاقتصاد الكلاسيكى لآدم سميث (انظر ثبت المفكرين ص. أ) ودافيد ريكاردو (١٧٧٢ ـ ١٨٢٣)، وكذلك أن الشيوعية السوفيتية تشكلت بصورة بارزة بواسطة كتابات كارل ماركس (انظر ثبت المفكرين ص. س) وفلاديمير الينش لينين (انظر ثبت المفكرين ص. ز)، وأيضًا أن تاريخ ألمانيا النازية ليس من الممكن فهمه إلا بالارتباط بالمبادئ التى قدمها هتلر فى كتابه «كفاحى».

وفى الواقع، يعد هذان التوصيفان للحياة السياسية أحاديى الجانب وغير ملائمين، لأن الأفكار السياسية ليست مجرد انعكاس سلبى للمصالح المبتغاة أو الطموح الشخصى، بل تتمتع بالقدرة على إلهام وإرشاد الفعل السياسى ذاته، ومن ثم تستطيع تشكيل الحياة المادية. وفى نفس الوقت، لا تنشأ الأفكار السياسية من فراغ، ولا تسقط من السماء كالمطر، وإنما تتشكل كل الأفكار السياسية من قبل الظروف السياسية والاجتماعية، التى تخدمها. وبمنتهى البساطة، ترتبط النظرية السياسية والممارسة السياسية بشكل لا يقبل الانفصال. وأى توصيف متوازن للحياة السياسية ينبغى من أجل ذلك أن يعترف بالتفاعل الثابت بين الأفكار والأيديولوجيات من جهة والقوى التاريخية والاجتماعية من جهة أخرى.

وتؤثر الأفكار والأيديولوجيات على الحياة السياسية بعدد من الطرق، فهى فى المقام الأول تقدم منظوراً يتم فهم وتفسير العالم من خلاله. فلا يرى الناس العالم كما هو ولكن فقط كما يتوقعونه أن يكون ـ بعبارة أخرى، إنهم يرونه عبر حجاب من المعتقدات والافتراضات المتأصلة، حيث يعتنق كل شخص، سواء بوعى أو بدون وعى منه، مجموعة من المعتقدات والقيم السياسية التى ترشد سلوكه وتؤثر على تصرفه. وبذلك تحدد الأفكار والأيديولوجيات السياسية الأهداف الملهمة للفعل السياسى. ومن هذه الزاوية يخضع الساسة لمؤثرين مختلفين للغاية. فمن دون شك أن جميع الساسة يطلبون السلطة، وهذا يرغمهم على أن يكونوا

براجماتيين(*)، أى أن يتبنوا تلك السياسات والأفكار ذات الشعبية الانتخابية أو التى تكسب تأييد الجماعات القوية كرجال الأعمال أو الجيش. لكن الساسة على أية حال قلما يطلبون السلطة لذاتها، إذ هم يعتنقون أيضا معتقدات وقيمًا وقناعات عما سيفعلونه بالسلطة عند حيازتها. وبالرغم من ذلك، يختلف التوازن بين الاعتبارات البراجماتية والأيديولوجية من سياسى لآخر، وأيضًا فى بعض الحالات من مرحلة لأخرى من الحياة المهنية لنفس السياسى.

كما تساعد الأفكار السياسية أيضا على تشكيل طبيعة النظم السياسية، لأن نظم الحكم تختلف بقدر معتبر فى أرجاء العالم وترتبط دائمًا بقيم أو مبادئ معينة. فقد قامت الملكيات المطلقة على الأفكار الدينية الراسخة، وخصوصًا الحق الإلهى المقدس للملوك، وتتأسس النظم السياسية فى البلدان الغربية المعاصرة على مجموعة من المبادئ الديمقراطية الليبرالية. وتحترم الدول الغربية بشكل نمطى الأفكار المتعلقة بالحكومة الدستورية المقيدة، وتؤمن أيضًا أن الحكومة يجب أن تكون تمثيلية وقائمة على الانتخابات التنافسية والدورية. وبنفس هذه الطريقة، اتبعت النظم السياسية الشيوعية التقليدية لمبادئ الماركسية ـ اللينينية. بل إن حقيقة انقسام العالم إلى مجموعة من الدول القومية وتركز سلطة الحكومة عادة على المستوى القومى ما هو إلا انعكاس لأثر الأفكار السياسية، وهى فى هذه الحالة فكرة القومية، وعلى وجه أكثر تحديدًا مبدأ تقرير المصير القومى.

وأخيرًا، تستطيع الأفكار السياسية أن تكون نوعًا من اللحام الاجتماعية الذى يزود الجماعات الاجتماعية، وحتى المجتمعات بأكملها، بمجموعة من المعتقدات والقيم التى تقوم بتوحيدها. وقد ارتبطت الأيديولوجيات السياسية بوجه عام بطبقات اجتماعية معينة ـ مثلاً ارتبطت الليبرالية بالطبقات الوسطى، والأيديولوجية المحافظة بالأرستقراطية المالكة للأرض، والاشتراكية بالطبقة العمالية وهكذا. وتعكس هذه الأفكار الخبرات الحية والمصالح والتطلعات المرتبطة بطبقة اجتماعية معينة، ومن ثم تساعد على تعزيز الإحساس بالانتماء

(*) البراجماتية هى السلوك الذى يتشكل وفقا للظروف والأهداف العملية وليس الأهداف الأيديولوجية.

والتضامن. ومع ذلك يمكن للأفكار والأيديولوجيات أن تنجح فى ربط الجماعات والطبقات المختلفة داخل المجتمع. وعلى سبيل المثال، هناك أساس موحد من القيم الديمقراطية - الليبرالية فى معظم الدول الغربية، بينما خلق الإسلام فى البلدان الإسلامية مجموعة مشتركة من المبادئ الأخلاقية والمعتقدات. وعن طريق تزويد المجتمع بثقافة سياسية موحَّدة، تساعد الأفكار السياسية على دعم النظام والاستقرار الاجتماعى. ومع ذلك، يمكن لمجموعة موحَّدة من الأفكار والقيم السياسية أن تنمو بصورة طبيعية داخل المجتمع، أو يمكن أن تُفرض من أعلى فى محاولة لصناعة الطاعة وممارسة التحكم. وتتوافر أوضح أمثلة على تلك الأيديولوجيات (الرسمية) فى أنظمة الحكم الفاشستية والشيوعية.

آراء فى الأيديولوجيا

يُعد هذا الكتاب فى المقام الأول دراسة للأيديولوجيات السياسية وليس تحليلاً لطبيعة الأيديولوجيا. ويصدر الكثير من الارتباك عن حقيقة أن "الأيديولوجيا" وبالرغم من اتصالهما البين، فإنهما مسألتان مختلفتان للغاية فى دراستهما. فأن تتفحص "الأيديولوجيا" هو أن تفكر فى نمط خاص من الفكر السياسى، يتميز عن علم السياسة أو الفلسفة السياسية. ولذلك تتعلق دراسة الأيديولوجيا السياسية بالتفكير فى أسئلة عن طبيعة ودور ودلالة تلك الفئة من الفكر، والتى ينبغى أن تصنف تحتها مجموعات من الأفكار والأطروحات السياسية كأيديولوجيات. فعلى سبيل المثال، هل الأيديولوجيا صواب أم خطأ، تحريرية أم قمعية، محتمة أم مجرد انتقالية؟ وبالمثل هل تعد القومية والتعددية الثقافية أيديولوجيات بنفس المعنى كالليبرالية والاشتراكية؟ ومن ناحية أخرى أن تدرس "الأيديولوجيات" يعنى العناية بتحليل محتوى الفكر السياسى، والاهتمام بالأفكار والمذاهب والنظريات التى قدمتها التقاليد الأيديولوجية المختلفة والتى نشأت بين طيَّاتها. فمثلاً، ماذا تستطيع الليبرالية أن تخبرنا عن الحرية؟ لماذا ناصر الاشتراكيون تقليديًا المساواة؟ كيف يدافع الفوضويون عن فكرة مجتمع اللا دولة؟ لماذا نظر الفاشستيون إلى الصراع والحرب كظواهر صحية؟ ومن أجل تفحص تلك المسائل المتعلقة "بالمحتوى" من الضرورى أن نأخذ بعين الاعتبار "نمط" الفكر السياسى الذى نتعامل معه. وقبل مناقشة الأفكار والمذاهب المميزة

لما يُسمى بالأيديولوجيات، فإننا فى حاجة إلى التفكير فى أسباب تصنيف تلك المجموعات من الأفكار باعتبارها أيديولوجيات. والأهم من ذلك هو بماذا يخبرنا هذا التصنيف؟ وماذا نستطيع أن نعرف مثلاً عن الليبرالية والاشتراكية والنسوية والفاشستية من حقيقة أنها صنفت باعتبارها أيديولوجيات؟

إن المشكلة الأولى التى تواجه أى مناقشة لطبيعة الأيديولوجيا هى حقيقة أنه لا يوجد تعريف مستقر أو متفق عليه لذلك المصطلح، وإنما هناك مجموعة من التعريفات المتنافسة. ومثلما وضع دافيد ماكليلان (١٩٩٥) الأمر، "الأيديولوجيا هى أكثر المفاهيم مراوغة فى العلوم الإنسانية بأكملها". وهناك القليل من المصطلحات السياسية التى شكلت موضوعًا لمثل هذا الخلاف العميق والملتهب. وقد حدث هذا لسببين. فى المقام الأول، تقر جميع مفاهيم الأيديولوجيا بالعلاقة بين النظرية والممارسة، ويكشف مصطلح الأيديولوجيا عن النقاشات المثيرة للخلافات، التى عولجت فى الجزء السابق من هذا الفصل، بصدد دور الأفكار فى السياسة والعلاقة بين المعتقدات والنظريات من جهة، وبين العالم المادى أو السلوك السياسى من جهة أخرى. ثانيًا، لم يتمكن مفهوم الأيديولوجيا من الوقوف بمنأى عن الصراع الدائر بين الأيديولوجيات السياسية وفى داخلها. ولفترة طويلة من تاريخه، استخدم مصطلح "الأيديولوجيا" كسلاح سياسى أى كأداة لإدانة أو انتقاد مجموعات الأفكار أو أنساق العقائد الخاصة بالخصوم. ولم يحدث الاستخدام الواسع لمفهوم محايد وموضوعى ظاهريًا للأيديولوجيا حتى النصف الثانى من القرن العشرين، وحتى حينئذ استمرت الخلافات بصدد الدور الاجتماعى والدلالة السياسية للأيديولوجيا. وضمن المعانى التى ارتبطت بالأيديولوجيا التالى:

- نسق عقيدى سياسى.
- مجموعة من الأفكار السياسية ذات التوجه الحركى.
- أفكار الطبقة الحاكمة.
- رؤية كونية لجماعة اجتماعية أو طبقة اجتماعية معينة..
- أفكار سياسية تجسد أو تبين المصالح الاجتماعية أو الطبقية.

- أفكار تسكن الفرد داخل سياق اجتماعى وتولد إحساسا بالانتماء الجماعى.
- مجموعة من الأفكار المصرح بها رسميًا وتستخدم لإضفاء الشرعية على نظام سياسى ما.
- مذهب سياسى شامل يدعى احتكار الحقيقة.
- مجموعة مجردة ومنظمة بدرجة عالية من الأفكار السياسية.

ورغم ذلك فإن أصول المصطلح واضحة، فقد صك أنطوان دستو دو تراسى (١٧٨٤ - ١٨٣٦) كلمة أيديولوجيا أثناء الثورة الفرنسية واستخدم لأول مرة علانية فى عام ١٧٩٦. وتشير الأيديولوجيا عند دو تراسى إلى "علم الأفكار" الجديد، أى علم - الفكرة (idea-ology) بصورة حرفية. فقد اعتقد، مع ذلك الحماس العقلانى النمطى للتنوير، أن من الممكن موضوعيًا الكشف عن أصول الأفكار، وأعلن أن هذا العلم الجديد سوف يتمتع بنفس المكانة الخاصة بالعلوم الراسخة كعلم الأحياء وعلم الحيوان. وبصورة أكثر جرأة، أشار دو تراسى إلى أن الأيديولوجيا ستتوج فى النهاية كملكة للعلوم، بما أن جميع أشكال البحث تتأسس على الأفكار. ورغم هذه التوقعات العالية لم يكن لذلك المعنى الأصلى للمصطلح على أية حال سوى أثر محدود على استخدام اللاحق.

وتبدأ السيرة المهنية للأيديولوجيا كمصطلح سياسى مفتاحى من الاستخدام الذى حدث له فى كتابات كارل ماركس. ويفسر استخدام ماركس للمصطلح والاهتمام الذى أبدته الأجيال اللاحقة من المفكرين الماركسيين به، إلى حد بعيد، تلك الشهرة التى تتمتع بها الأيديولوجيا فى الفكر السياسى والاجتماعى الحديث. لكن المعنى الذى نسبه ماركس للمفهوم مختلف للغاية عن ذلك الذى يعزوه إليه التيار السائد فى التحليل السياسى. فقد استخدم ماركس المصطلح فى عنوان عمله المبكر الأيديولوجيا الألمانية (١٨٤٦ - ١٩٧٠) الذى كتبه بالتعاون مع رفيق عمره فريدريك إنجلز (١٨٢٠ - ١٨٩٥). ويحتوى هذا الكتاب أيضًا على أوضح وصف أورده ماركس لرؤيته عن الأيديولوجيا:

"تعد الأفكار السائدة فى كل حقبة أفكار الطبقة الحاكمة، أى أن الطبقة التى تمثل القوة المادية الحاكمة فى المجتمع هى فى نفس الوقت القوة

الفكرية الحاكمة. فالطبقة التى تملك وسائل الإنتاج المادى تحت تصرفها تسيطر فى ذات الوقت على وسائل الإنتاج العقلى، بحيث يمكن القول بوجه عام عندئذ إن أفكار الذين لا يملكون وسائل الإنتاج العقلى تخضع لها [أى للطبقة حاكمة](*)" (Marx and Engles, 1970, p. 64).

ويحظى مفهوم ماركس للأيديولوجيا بعدد من الملامح الحاسمة. أولاً، ارتباط الأيديولوجيا بالوهم والغموض: فهى مسئولة عن رؤية زائفة أو خاطئة للعالم، وهو ما أشار إليه إنجلز لاحقًا بمصطلح "الوعى الزائف"(**). واستخدم ماركس الأيديولوجيا كمفهوم نقدى يهدف إلى إماطة اللثام عن عملية الإضفاء الممنهج للغموض، وقد صنف أفكاره هو باعتبارها علمية، لأنها مصممة بدقة للكشف عن آليات التاريخ والمجتمع. وهكذا كانت المفارقة بين الأيديولوجيا والعلم، وبين الزيف والحقيقة، ذات أهمية حيوية بالنسبة لاستخدام ماركس للمصطلح. ثانيًا، ارتباط الأيديولوجيا بنظام الطبقات، إذ اعتقد ماركس أن التشوُّه المضمر فى الأيديولوجيا ينبع من حقيقة أنها تعكس مصالح الطبقة الحاكمة ونظرتها للمجتمع. فليست الطبقة الحاكمة راغبة فى الاعتراف بأنها قوة قاهرة، وبالمثل فهى متلهفة للتوفيق بين المقهورين وقهرهم. ولذلك يتم تصوير النظام الطبقى بصورة مقلوبة، وهى فكرة ينقلها ماركس عن صورة الحجرة المظلمة (CameraObscura)، أى الصورة المقلوبة التى تنتجها عدسة الكاميرا أو العين البشرية. ومن أجل هذا، تعد الليبرالية، التى تصور الحقوق التى تمارس من قبل أصحاب الملكية والامتيازات فقط باعتبارها استحقاقات عامة، المثال الكلاسيكى للأيديولوجيا. ثالثًا، الأيديولوجيا كمظهر للقوة، حيث تضع غطاء على أعين البروليتاريا المستغَلة إزاء حقيقة استغلالها، وذلك من خلال إخفاء التناقضات التى تتأسس عليها الرأسمالية مثلها مثل غيرها من المجتمعات الطبقية، وهكذا تسند الأيديولوجيا النظام الطبقى غير المتكافئ. وتشكل الأيديولوجيا بصورة حرفية الأفكار "الحاكمة" فى عصر معين. وأخيرًا، تعامل ماركس مع الأيديولوجيا كظاهرة مؤقتة،

(*) إضافة المترجم.

(**) الوعى الزائف: مصطلح ماركسى يشير إلى الوهم والغموض اللذين يعيقان الطبقات الخاضعة من التعرف على حقيقة أنها تتعرض للاستغلال.

فهى تستمر فقط طالما بقى النظام الطبقى الذى يولدها. ومن وجهة نظر ماركس "لحاد" الرأسمالية، ليس قدر البروليتاريا أن تنشئ شكلاً آخر للمجتمع الطبقى، ولكن أن تصفى عدم المساواة الطبقية بالجملة من خلال إرساء الملكية الجماعية للثروة. وهكذا تتفق مصالح البروليتاريا مع مصالح المجتمع ككل. ولا تحتاج البروليتاريا الأيديولوجيا لأنها الطبقة الوحيدة التى لا تحتاج إلى أوهام.

وقد أبدت الأجيال اللاحقة من الماركسيين اهتمامًا أكبر بالأيديولوجيا من ماركس ذاته، وهو ما يعكس إلى حد كبير حقيقة ثبوت أن تنبؤ ماركس الواثق بانهيار الرأسمالية كان متفائلاً بدرجة زائدة، الأمر الذى شجع الماركسيين اللاحقين على التركيز على الأيديولوجيا باعتبارها أحد العوامل التى تفسر القابلية غير المتوقعة للتكيف التى يتصف بها نمط الإنتاج الرأسمالى. إلا أنه قد حدثت تحولات مهمة فى معنى المصطلح، وعلى وجه الخصوص جرى النظر إلى جميع الطبقات باعتبارها تمتلك أيديولوجيات خاصة بها. ولذلك يصف لينين فى كتابه ما العمل؟ (١٩٠٢ ـ ١٩٨٨) أفكار البروليتاريا باعتبارها "الأيديولوجيا الاشتراكية" أو "الأيديولوجيا الماركسية"، وهى عبارات كانت ستبدو سخيفة بالنسبة لماركس. ولكن بالنسبة للينين ومعظم الماركسيين اللاحقين، تشير الأيديولوجيا إلى الأفكار المميزة لطبقة اجتماعية معينة، تلك الأفكار التى تقدم مصالحها بغض النظر عن موقعها الطبقى. ولأن كل الطبقات، كالبروليتاريا وكذلك البرجوازية، تمتلك على أية حال أيديولوجيا معينة أزالت عن المصطلح دلالاته السلبية أو الانتقاصية. ولم تعد الأيديولوجيا توحى بالضرورة بالزيف والغموض، ولم تعد تقف فى مواجهة العلم؛ وجرى بالفعل الاعتراف بأن "الاشتراكية العلمية" (الماركسية) هى شكل الأيديولوجيا البروليتارية.

ولعل أنطونيو جرامشى، قام بتطوير النظرية الماركسية عن الأيديولوجيا إلى حد أبعد، حيث يرى جرامشى (١٩٣٥ ـ ١٩٧١) أن نظام الطبقات الرأسمالى لا يقوم ببساطة على عدم تكافؤ فى القوة السياسية والاقتصادية ولكن على ما أطلق عليه "**هيمنة**"(*) النظريات والأفكار البرجوازية. وتعنى الهيمنة القيادة أو

(*) الهيمنة هى صعود أو سيطرة أحد عناصر النسق على العناصر الأخرى، وتوحى الهيمنة بالنسبة للماركسيين السيطرة الأيديولوجية.

السيطرة وتشير الهيمنة الأيديولوجية إلى قدرة الأفكار البرجوازية على إزاحة الآراء المنافسة لها وأن تشكل فى الواقع المعنى العام للعصر. ويلقى جرامشى الضوء على درجة تجذر الأيديولوجيا فى كل مستوى من مستويات المجتمع، فى فنونه وآدابه، وفى نظامه التعليمى وإعلامه الجماهيرى، وفى لغة الحياة اليومية والثقافة الشعبية. ويصر جرامشى على أن الهيمنة البرجوازية لا يمكن تحديها إلا على المستوى السياسى والفكرى، وهو ما يعنى عن طريق إقامة " هيمنة بروليتارية " منافسة تقوم على المبادئ والقيم والنظريات الاشتراكية. وشكلت قدرة الرأسمالية على تحقيق الاستقرار عن طريق صنع الشرعية اهتمامًا خاصة لمدرسة فرانكفورت، وهى مجموعة من الماركسيين الجدد الألمان أساسًا الذين فروا من النازيين واستقروا بعد ذلك فى الولايات المتحدة.

ويرى هربرت ماركيوز (انظر ثبت المفكرين ص. ص)، وهو أكثر أعضائها شهرة، فى كتابه الإنسان ذو البعد الواحد (١٩٦٤) أن المجتمع الصناعى المتقدم اكتسب طابعا " شموليًا " من خلال قدرة أيديولوجيته على التلاعب بالفكر وحرمان الآراء المعارضة من التعبير.

وعن طريق خلق احتياجات زائفة وتحويل الناس إلى مستهلكين شرهين، تستطيع المجتمعات الحديثة شل النقد من خلال انتشار الوفرة الواسعة وغير المفيدة. ووفقًا لماركيوز، فحتى التسامح الظاهرى للرأسمالية الليبرالية يخدم غرضًا قمعيًا من خلال خلق الانطباع بوجود جدل ونقاش حر، وبذلك يخفى الدرجة التى يحدث بها التلقين والتحكم الأيديولوجى.

وقد قام عالم الاجتماعى الألمانى كارل مانهايم (١٨٩٣ ـ ١٩٤٧) بواحدة من بواكير المحاولات لبناء مفهوم غير ماركسى للأيديولوجيا، وهو مثل ماركس يقر بأن أفكار الناس تتشكل بواسطة ظروفهم الاجتماعية، لكنه على خلاف ماركس جاهد ليخلص مصطلح الأيديولوجيا من مضامينه السلبية. ففى كتابه الأيديولوجيا واليوتوبيا (١٩٦٠ ـ ١٩٢٩) يصور مانهايم الأيديولوجيات كأنساق فكرية تخدم فى الدفاع عن نظام اجتماعى معين، وتعبر بشكل واسع عن مصالح الجماعة الحاكمة أو المسيطرة. أما اليوتوبيات فهى صور مثالية للمستقبل توحى بالحاجة إلى التغيير الاجتماعى الراديكالى، الذى يخدم بشكل لا يتغير مصالح

الجماعات الخاضعة أو المقهورة. ويميز بين المفهوم " الخاص" و" الكلى" للأيديولوجيا، حيث تعتبر الأيديولوجيات " الخاصة" هى أفكار ومعتقدات لأفراد أو جماعات أو أحزاب معينة، بينما الأيديولوجيات "الكلية" الرؤية الكونية بأكملها المرتبطة بطبقة اجتماعية أو مجتمع أو حتى مرحلة تاريخية معينة. وبهذا المعنى، يجوز النظر إلى الماركسية والرأسمالية الليبرالية والأصولية الإسلامية كأيديولوجيات "كلية". على أن مانهايم يعتبر أن كل الأنساق الأيديولوجية، بما فى ذلك اليوتوبيات، مشوهة لأن كلا منها يقدم نظرة جزئية للواقع الاجتماعى، تُعلى من شأن المصلحة الذاتية بالضرورة، لكنه يرى أن محاولة الكشف عن الحقيقة الموضوعية لا يجوز التخلى عنها بالكامل، حيث إن الموضوعية من وجهة نظر مانهايم تعد حكرًا على نحو صارم على " الأنتلجنتسيا غير المرتبطة اجتماعيًا" أى طبقة المثقفين التى تستطيع وحدها الاشتغال بالبحث العلمى المنضبط والمتجرد من المشاعر، لأنها ليس لديها مصالح اقتصادية خاصة بها.

تأثرت مسيرة المفهوم بصورة عميقة بظهور الديكتاتوريات الشمولية فى فترة ما بين الحربين العالميتين، وبالتوترات الأيديولوجية الحادة أثناء الحرب الباردة فى خمسينيات وستينيات القرن العشرين. وصور المنظرون الليبراليون على وجه الخصوص الأنظمة الحاكمة التى ظهرت فى إيطاليا الفاشستية وألمانيا النازية وروسيا الستالينية، كأنظمة حكم قمعية فريدة وجديدة من الناحية التاريخية، وألقوا الضوء على الدور الذى لعبته الأيديولوجيات "الرسمية" فى كبت الجدل والنقد وإشاعة الطاعة العمياء. وأصبح كتاب مختلفون من أمثال كارل بوبر (١٩٤٥)، وحنه أرندت (١٩٥١) وجيه إل تالمون (١٩٥٢) وبرنارد كريك (١٩٦٢) وكذلك منظرو "نهاية الأيديولوجيا"، الذين سيتعرض لهم الفصل الثانى عشر من هذا الكتاب، أصبحوا يستخدمون مصطلح "الأيديولوجيا" بطريقة شديدة التقييد، جاعلين من الفاشستية والشيوعية نماذج رئيسية لها. ووفقًا لهذا الاستخدام، تعد الأيديولوجيات أنساقًا فكرية " مغلقة"، ترفض من خلال ادعائها احتكار الحقيقة تحمُّل الأفكار المعارضة والمعتقدات المنافسة. وهكذا صارت الأيديولوجيات "أديانًا علمانية"؛ فهى تملك طابعًا "شموليًا" وتوظف كأدوات للضبط الاجتماعى لتضمن الطاعة والخضوع. ولكن ليست جميع العقائد السياسية أيديولوجيات بهذا

المعيار، ذلك أن الليبرالية مثلاً التى تقوم ـ كما هى حالها ـ على التزام أساسى بالحرية والتسامح والتنوع هى أوضح مثال على النسق الفكرى "المفتوح" (Popper, 1946).

ويمكن التعرف أيضًا على مفهوم محافظ بامتياز للأيديولوجيا، ويقوم هذا على الإحساس المزمن بعدم الثقة للمحافظين تجاه المبادئ المجردة والفلاسفة، وهو ما تولد عن موقف متشكك إزاء العقلانية والتقدم. وينظر ذلك الموقف إلى العالم باعتباره مركبًا بشكل لا نهائى وأبعد من قدرة العقل البشرى على سبر غوره. ويعتبر مايكل أوكيشوت (١٩٠١ ـ ١٩٩٠) الفيلسوف السياسى البريطانى، أبرز ممثل معاصر لهذه النظرة، ففى كتابه العقلانية فى السياسة (١٩٦٢) يرى أوكيشوت أن " البشر يبحرون فى بحار لا شواطئ ولا قيعان لها عندما يتصل الأمر بالنشاط السياسى". ومن هذا المنظور، تعتبر الأيديولوجيات أنساقًا فكرية مجردة أو مجموعات من الأفكار قدر لها أن تبسط وتشوِّه الواقع الاجتماعى، لأنها تزعم أنها تفسر ما هو بكل صراحة غير قابل للفهم. وهكذا تصير الأيديولوجيا مكافئة للدوجماتية: أى تلك المعتقدات الثابتة أو غير العملية المنفصلة عن تعقيدات العالم الواقعى. ولذلك رفض المحافظون الطابع "الأيديولوجى" للسياسة المبنية على محاولات إعادة تشكيل العالم وفقًا لمجموعة من المبادئ المجردة أو النظريات المسبقة. وكان المحافظون يفضلون تبنى ما أطلق عليه أوكيشوت "الموقف المتمسك بالتقاليد"، (Traditionalist) حتى أصيبوا بداء السياسة المؤدلجة عند اليمين الجديد، ذلك الموقف الذى يزدرى الأيديولوجيا لصالح البراجماتية وينظر إلى الخبرة والتاريخ كأوثق مرشدين للسلوك الإنسانى.

ومنذ ستينيات القرن العشرين، حظى مصطلح "الأيديولوجيا" بتداول أوسع نطاقًا رغم تكييفه وفقا لاحتياجات التحليل الاجتماعى والسياسى المتعارف عليه. وقد جعل هذا من الأيديولوجيا مفهومًا محايدًا وموضوعيًا، وجرى التخلص من المتاع السياسى الذى حمّل به ذات مرة. فيعرف مارتن سيلجر (١٩٧٦) مثلاً الأيديولوجيا باعتبارها " مجموعة من الأفكار يضع من خلالها الناس ويفسرون ويبررون غايات ووسائل النشاط الاجتماعى المنظم، بغض النظر عما إذا كان ذلك النشاط يهدف إلى الحفاظ على نظام اجتماعى بعينه أو تعديله أو اقتلاعه أو